الأصالة في نظر رضا مالك
تحليل الخطاب من خلال نظرية الحديث أو التلفظ

محمد يحياتن
جامعة الجزائر

مقدمة:

سنسعى من خلال مداخلتنا هذه إلى تطبيق بعض المفاهيم والأدوات الإجرائية التي تمخضت عن النظرية اللسانية المعروفة بنظرية الـ Enonciation أو بنظرية الحديث أو التلفظ –وهو المصطلح الشائع في الأدبيات العربية –التي بلورها اللساني الفرنسي إميل بنفنست E. Benveniste، على خطاب أو نص عربي هو عبارة عن مقالة للسيد رضا مالك نشرها في جريدة الخبر يومي 16-17 ديسمبر 1997 بعنوانين «حول الأصالة». والحال إن هذه المقالة فصل من كتاب سبق له أن نشره بعنوان Tradition et révolution: le véritable enjeu (التراث والثورة: الرهان الحقيقي) عن دار بوشان بالجزائر، سنة 1991.

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن مداخلتنا هذه محاولة تعليمية didactique غايتها تقريب المفاهيم الحديثة من

مدارك الطلبة بخاصة، لا سيما وأننا والحق يقال، لا ندرس في برامجنا هذه النظرية وغيرها من النظريات الحديثة.

1 - في تحديد مفهوم الخطاب ونظرية الحديث

1.1 في مفهوم الخطاب وتحليله من وجهة نظرية الحديث(*)

يستمد تحليل الخطاب وجوده من رفض الثنائية dichotomie السوسيرية لسان /كلام (Langue/Parole) وما ترتب عليها من إقصاء لدراسة الكلام التي عدّها سوسير «ثانوية» و«فردية» في مجال اللسانيات. وهذه الثنائية قد أدت إلى حصر موضوع اللسانيات في الجملة. الأمر الذي أدى ببعض اللسانيين، وفي طليعتهم إ. بنفنست، إلى قلب هذا التصور وذلك بقوله:

«إن الجملة لا تشكل في صلب ملفوظ أكبر سوى وحدة صغرى للخطاب»(1).

ويضيف قائلا:

«نخلص إلى القول بأننا مع الجملة نبرح ميدان اللغة بوصفها نظاما من الأدلة ونلج عالما آخر هو عالم اللغة بوصفها أداة للتخاطب التي تتجلى في الخطاب..»(2).

هذا ويحدد بنفنست الخطاب كالتالي:

«يجب النظر إلى الخطاب من حيث بعده الواسع، أي من حيث هو كلام /تلفظ يفترض وجود متكلم ومخاطب وأن للأول نية التأثير على الثاني بشكل من الأشكال»(3).

2.1 في مفهوم التلفظ والملفوظ

التلفظ énonciation في نظر بنفنست دائما هو حدث acte التكلم نفسه أو النشاط المتحقق بواسطة الكلام أو إنتاج الكلام/الملفوظ، أما الملفوظ فهو نتاج التلفظ أي مجموع الأقوال المنجزة.

3.1 تحليل الخطاب من وجهة نظر نظرية الحديث

إن تحليل الخطاب من منظور هذه النظرية يمر أولا بمعاينة المتكلم énonciateur بالوقوف على الكيفية التي يتمظهر بها في صلب ملفوظه وكذا بحصر سياق التلفظ (المكان، الزمان، موضوع الخطاب الخ...) وبتحديد المخاطب énonciataire، ذلك أن فعل التلفظ نفسه يفترض كما هو معلوم وجود متكلم أي ذات ناطقة/كاتبة ومخاطب/قارئ. فالمتكلم/الكاتب يجلي الآخر قبالته أيا كانت درجة الحضور التي يخولها لهذا الآخر.

وصفوة القول إن تحليل الخطاب من هذا المنظور يعني تحليل الظواهر التلفظية التالية:

- الأمارات indices الدالة على المتكلم وكيفية انبجاسه في الخطاب.
- إستكشاف هوية المخاطب.
- إستكشاف موضوع الخطاب (قضايا المرجع référent).
- إستكشاف مواقف المتكلم حيال خطابه الشخصي.
- إستكشاف الأمارات الدالة على المكان والزمان الخ...

وهذا الذي قدمنا يعني لامحالة استحضار كل ما هو غير لغوي extra-linguistique (أي الظروف المختلفة المتنوعة التي تحف بإنتاج الخطاب) وهذا لما يصعب مهمة الدارس المحلل.

لكن الذي ينبغي التأكيد عليه ههنا هو أن تحليل الخطاب كما يقول د. عبد الرحمن الحاج صالح: «يتناول النص الأدبي والفني عموما والمراد منه هو الكشف عن طرق الأداء التي اختارها صاحب الخطاب ليعبر عن أغراضه»(4). وهو مغاير لتحليل المضمون analyse de contenu الذي يسعى إلى «الوصول إلى الأغراض الحقيقية التي من أجلها حرر صاحب الخطاب خطابه مع البحث من خلال النص وحده عن الأدلة التي تدل بالدليل القاطع على وجود هذه الأغراض ...»(5).

2 - الدراسة التطبيقية

لم الاشتغال على خطاب لا يندرج في صلب الأجناس الأدبية المعروفة؟ إننا نريد أن يعرف الطلبة أن الأبحاث الجارية في مجال تحليل الخطاب لا تعنى فقط بالآثار الأدبية، بل تتعدى ذلك إلى مختلف الخطابات المتداولة.

أما عن انتصارنا لموضوع الأصالة، فمرده إلى أن الخطاب العربي المعاصر قد قصر همه على هذه المعضلة أو ما يعرف كذلك بـ «الأصالة والمعاصرة» أو «التراث والحداثة».

1.2 الأصالة أو قضية المرجع (عمّ نتحدث؟)

من الشروط الواجب استيفاؤها كي يحصل التفاهم بين المتخاطبين تحديد موضوع التخاطب بقصد تحاشي اللبس بله الصراع أحيانا. بعبارة أخرى لا بد من الاتفاق على «الشيء» المتحدث عنه. لهذا سنعمد أولا إلى حصر معنى أو معاني الأصالة في لسان العرب ثم في خطاب رضا مالك.

1.1.2 في اللسان

يفيدنا لسان العرب بأن أصالة مصدر أصل وهو مصدر. ويفيد اللفظ معاني عديدة منها: الحسب، والعراقة والنبل(6).

2.1.2 في الخطاب

من المعروف أن القواميس اللغوية تنطوي على المعاني المقدرة للكلمات sens virtuels. في حين أن الخطاب أو الخطابات التي ينتجها الناطقون بلغة ما (أو الكتاب على اختلاف تخصصاتهم) تنطوي على المعاني المحصلة sens actualisés.

وهنا، أي ونحن بصدد الحديث عن الأصالة، لا مندوحة لنا من القول بأن اللفظ -إن نحن قارناه بمعانيه الواردة في لسان العرب- قد اكتسب دلالة جديدة مولدة وذلك في بداية القرن العشرين، ومأتاها الصدام الذي حصل بين العالم العربي الإسلامي والغرب بوجه عام. علما بأن الدلالة التي يغطيها اللفظ غير مجمع عليها: ذلك أن لكل أصالته، وهذا ما يجعل السجال والجدال قائما حولها. وهذا ما سنراه خلال مدونتنا.

2.2 السياق التاريخي والسياسي لإنتاج الخطاب

الخطاب موضوع التحليل حديث العهد جدا، كما لمحنا إلى ذلك فهو من إفرازات نهاية القرن العشرين في بلد بعينه إسمه الجزائر والذي يمر بفترة صعبة جدا من تاريخه، يتطارح فيها الجزائريون أسئلة الهوية والمشروع المجتمعي والسياسي الذي ينبغي أن يعيشوا في كنفه، كل هذا يحصل في جو مأساوي للغاية. غير أن هذا لا يعني أن الأمر مقصور على الجزائر، بل هناك بلدان عربية تقاسم الجزائر خَطْبها إن قليلا أو كثيرا. ولا أدل على ذلك من أن خطاب رضا مالك موجه إلى متخاطبين عرب مسلمين يتطارحون هذه المعضلات وأدلوا بآرائهم فيها.

3.2 أطراف الخطاب

نسجل في البداية أن التخاطب مؤجل في الزمان والمكان il s'agit d'une interlocution différée، بمعنى أن التخاطب لا يجري بين المتخاطبين في

زمن واحد ومكان واحد، كما هو الشأن بيننا الآن. فالمتكلم ههنا هو رضا مالك يوجه بشكل غير مباشر الحديث إلى متخاطبين عاشوا في فترات سابقة. من ذلك:

- الاخوان المسلمون (مصر) (العشرينات من هذا القرن).
- العلماء المسلمون (ابن باديس) (الثلاثينات).
- زعماء الاصلاح (محمد عبده..).

وهذا الذي ذكرنا ليس بخال من أية دلالة، بل يدل دلالة واضحة على استمرار المعضلة وتأريقها للمثقفين العرب المسلمين.

من هو المتكلم؟ ربّ قائل يقول. إنه غني عن التعريف. والحال إن الأمر ليس كذلك من بعض الوجوه. فالذي نعرفه عن رضا مالك هو أنه رجل سياسي محنك واضطلع بمسؤوليات عديدة على مستوى السلطة. لكن الذي يجهله الكثيرون هو أن السيد رضا مالك ذو تكوين فلسفي ودراية واسعة بالتراث العربي الإسلامي. فالكتاب الذي نشره يزخر بالإحالات على المصادر والمراجع الفلسفية وأمهات الكتب التراثية. ولعل هذا هو الذي يؤهله لأن يخاطب غيره ممن ذكرناهم آنفا من موقع المساواة.

هذا ويجلي السيد رضا مالك نفسه في خطابه باستخدام ضمير «نحن» أي ضمير المتكلم الجمع. من ذلك مثلا:

«إذا كنا نشعر باعتزاز عميق تجاه ماضينا العريق الذي تجلت فيه حكمة القدماء، وتلقت فيه العبقرية القومية بصمات لا تمحى، فهذا مشروع مقبول...».

«.. نحن لا نرى إلا مخرجا واحدا: الكفاح بأسلحة القادمين الجدد..».

غير أن هذا «النحن» إنما هو نحن التفخيم majesté ولا تساوي في المحصلة سوى «أنا» ولا يمكن تصور انضواء المخاطبين داخل هذا النحن

بسبب من أن خطاب رضا مالك سجالي polémique يحاول من خلاله دحض آراء المخاطبين. ويمكن تصوير ذلك كالتالي:

المخاطبون: «إن الأصالة هي كذا وكذا..»

ر. مالك: «ليست الأصالة كذا وكذا وإنما هي ...».

بالإضافة إلى هؤلاء المخاطبين الذين يوجه إليهم رضا مالك خطابه، نفترض وجود قراء مقدرين (موجودين بالقوة) virtuels يريد المتكلم التأثير عليهم بأي شكل من الأشكال كما يقول إ. ينفنست.

4.2 زمن التلفظ

يمكن القول بأن زمن التلفظ هو الحاضر présent أساسا، ومرد ذلك أن المتكلم يصدر عن راهنية مؤرقة كما أسلفنا يريد أن يتخذ منها موقفا معينا، غير أن زمن الحاضر هذا لا يتجلى في الصيغ التي تعبر عنه ذلك أن المتكلم كثيرا ما يعمد إلى استخدام الجمل الاسمية التقريرية التي تفصح عن مواقف مما يجري (أي في الحاضر) كما سنرى ذلك لاحقا.

من جهة أخرى، يرد زمن المستقبل حينما يروم المتكلم تجاوز المحنة الراهنة وذلك بأن يهيب بالناس (القراء المقدرين) إلى تبني الأصالة التي يدعو إليها إن في القريب العاجل أو البعيد.

يمكننا تصوير هذا الذي أسلفنا في الخطاطة التالية:

الراهن المؤرق	الوعي الشقي بهذا الراهن	المستقبل المنظور
- الأصالة التي ينادي بها الاصلاحيون هي ذات طبيعة أخرى... - ولكن هذه الأصالة ليست الأصالة التي نهفو إليها والتي يقتضيها العصر... - لا شك أن الإنسان في هذا المستوى يعيش هذه الأصالة في شكلها الأكثر سلبية أي رفض كلما ينعت بصفة الجديد والنفور من كل ما يخرجعن المعتاد. - ومما لا شك فيه أن هذه المميزات كلها عبارة عن سذاجات رجعية وخزعبلات تعود بنا إلى القرون الوسطى...	«إن المشروع الحداثي الذي يحاول بكل صبر وجهد أن يشق طريقا له في الذهنيات يجد نفسه حائرا محرفا ومدحوضا، وذلك رغم تفوقه التاريخي»	- الحداثة هي أن نجعل الإنسان راشدا قادرا على أن يسير نفسه أخلاقيا بالاعتماد على معيار ضميره وحده. سوف يقوم عندئذ بواجبه لا لأنه مجبر على ذلك أو لأنه ينتظر جزاء ما بل لأن الأمر أولا وقبل كل شيء مسألة نزاهة تجاه نفسه وأمانة واخلاص تجاه الله والمجتمع». - «فإذا لم تتوفر هذه الشروط التي تضمن بروز الفرد على الساحة التاريخية، فما معنى الديمقراطية التي ننادي بها»(...)

ومما يمكن الخلوص إليه عندما ننظر في بنية الزمن في خطاب مالك هو أن هذه الثنائية حاضر /مستقبل تؤطر طبيعة الأفعال الكلامية actes de pa-role التي تسري في النص المالكي من حيث أن:

أ. زمن الحاضر يعتمده المتكلم لتقرير أحوال بعينها: أفعال كلامية تقريرية constatifs

ب. زمن المستقبل ويعتمده المتكلم للدعوة إلى القيام بأعمال معينة: أفعال كلامية إنشائية performatifs المصوغة في شكل أوامر: يجب أن، ينبغي أن .. إلخ(7).

5.2 موقف المتكلم مما يصدع به هو نفسه وما يصدع به غيره (appreciatifs)

في هذا الباب كذلك نلاحظ ثنائية binarisme أخرى يمكن أن ننعتها بلعبة الدحض والإثبات، أي:

- دحض آراء «الخصوم» (= رفض أطروحاتهم حول الأصالة)
- إثبات الرأي الشخصي وتقديمه على أنه الأحسن (نقيض الأطروحة).

نمثل لهذه بالأمثلة التالية:

أصالة المخاطبين		أصالة رضا مالك
- عاطفة بلا مضمون ولا تبصر		- التفتح على العالم وعلى الموضوعية
- تقديس الماضي		- الاجتهاد الذاتي من أجل إدراج ما هو مختلف
- سراب مبالغ فيه	≠	- صلة المتفرد بالكوني
- الحنين إلى الماضي		- اندراج الخصوصي في الكوني
- النمط الموحد الذي هو من صفات الحضارات المتجمدة		
«أصالة مزيفة»		«أصالة حقيقية»

البنية الحجاجية التي ينطوي عليها الخطاب المالكي موقوفة كما نرى على أحكام القيمة المدحية التي يطلقها على الأصالة التي يدعو إليها من حيث:

تفتحها على العالم في مقابل تقوقع أصالة الآخرين على ذاتها،

اجتهادها على ادراج ما هو مختلف في مقابل أصالة الآخرين التي ترفض العوامل الخارجية.

لكن هناك وجها آخر للمحاجة يستجليها الدارس من خلال امعانه النظر في ثنايا الخطاب ويتمثل هذا الوجه في صدور رضا مالك من داخل التراث ليس من خارجه، وكأن لسان حاله يقول «إن الذي أدعو إليه ليس ابتداعا بل نلفيه عند أسلافنا، غير أننا ذهلنا عنه مع الأسف». فهو في هذا المضمار ومن هذا الموقع يستشهد ليعضد الأصالة التي يؤمن بها (= الأصالة الحقيقية كما يقول) بالسلف الصالح من صحابة وفقهاء أجلاء وشعراء. من ذلك مثلا:

أ. ابن تيمية:

«الذي يرى أن العدل لا حدود له وأن اللّه قد ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة».

ب. علي بن أبي طالب (ض):

«كان يبرز في مقولة من مقولاته في نهج البلاغة الهوة القائمة بين العبد الذي يصلي خوفا من العقاب والإنسان الذي يتجه إلى اللّه مدفوعا بانطلاقة من إرادته».

مما أسلفنا نخلص إلى القول أن خطاب رضا مالك يتسم بالوثوقية فهو يتبدى واثقا من صدق دعواه، باستثناء مواطن قليلة نلحظ فيها بعض اللين والتقييد في الأحكام. ولكنه صريح، إذ يصدع برأيه حيال القضايا الكبرى دون تردد، فلا يوجد في نظرنا مسكوت عنه. ولنضرب على هذا الأمثلة التالية:

– «في هذا السياق إذا أردنا أن نعمل عندنا على التعجيل بقيام دولة حديثة، فإن أولى الفرضيات التي ينبغي طرحها بوضوح ودون التواء هي استقلالية الضمير الفردي في مضمار العقيدة مع ما تستتبعه من احترام عقيدة كل إنسان أيا ما كانت ...».

– «إن الفعالية الحديثة – دون أن نهوّن من أدوار القوى الكبرى التي ساهمت في تفكيك الدولة العثمانية قد أرغمت إلى الانتقال من المنتفخ والمنغلق – إنها مفاهيم إقطاعية عرضت الشعوب والأقاليم للجمود – إلى مبدأ تطور كلي قائم على الحرية ومقايضة الولاء الإسلامي الذي تساوت فيه العديد من الشعوب التابعة لاسطنبول بولاء وطنياتي متمركز في إقليم ولغة وتاريخ محلي يعاد اكتشافه وعبقرية يعاد تأهليها.

← إن هذه المقايضة رغم ما قيل عنها تعتبر تقدما لا يقدر بثمن».

الهوامش:

(*) – نهيب بالطلبة إلى العودة إلى كتابي دومينيك مانغونو D. Maingueneau القيمين، لمزيد من التفاصيل، وهما:

- (1976): Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, Hachette - Université.

- (1987): Nouvelles tendances en analyse du discours, Hachette - Université.

(1) – E.Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Gallimard, 1966, p. 242.

(2) – إ. بنفنست، المرجع السابق، ص 243.

(3) – إ. بنفنست، المرجع نفسه، ص 245.

(4) – د. عبد الرحمن صالح، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، الميزر، العدد 6، 1995، ص 9.

(5) – د. عبد الرحمن صالح، المرجع نفسه، ص 10.

(6) – ابن منظور، لسان العرب: انظر مادة (أ ص ل).

(7) – انظر جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.